لمحته فيها ، كان مصلوبا داخل دمه · ولوركا ليس فلسطينيا · على الشاشة الصغيرة لاحدى دور السينما في الحي اللاتيني بباريس كان « ارابال » يرقص على ايقاع الموت ، ولوركا يصلب والماء يرتفع كالمحيط وسط المدينة وبيوت الصفيح · قلت لصديقي الفلسطيني الذي سألني عن تل الزعتر ، أن تل الزعتر يشبه « اسبانيا في القلب » ، وان لوركا صلبوه ، وان الاشياء لا تتكرر وان تشابهت لحظة بشكل عجيب : من الداخل حيث « الفالانج » ومن الجوار حيث هتلر او بيغن · لكن هوشي منه قال مرة ان احذية المطاط تنتصر على الدبابات والطائرات · وهوشي منه لا يكذب · والفقراء يصدقون الفقراء ·

لكن العدس هو عدس الديمقراطية التي عادت اخيرا · اخر قلاع الفاشية يسقط كالكرتون ، بعد أن مات الحارس · يستطيع فرنكو ان يموت · لكن الشعب الاسباني لا يستطيع ان يموت · وفي النهاية تصبح الفاشية مجرد جثة · حتى البرجوازيون الذين خضعوا او ساعدوا الفاشية عن « قناعة » ، يهربون الان من الرائحة · وبيكاسو كان يعرف ان الريشة لن تسقط ابدا · وحده نيرودا الذي احب اسبانيا ، لم ير هذا الضوء ، لان سماء التشيلي كانت تواجه اقدام الجنرالات · وبينوشه سوف يموت · وستعود سانتياغو لتهتف لاليندي ونيرودا والديمقراطية التي ذبحت ·

في شارع خوسيه انطونيو الذي يشبه شارع الحمراء في بيروت ، او شوارع الدار البيضاء التجارية ، كانت الاعلام تتقدم وسط ابواق السيارات وايقاع اقدام رجال الشرطة الذين لم يخلعوا الكرباج الفاشي عن وسطهم ، لكنهم لا يستعملونه الان لضرب المتظاهرين او لسحق العمال · بعضهم كان يهتف ، وبعضهم الاخر كان يصفق · الشرطي يمكن ان يكون جميلا قال صديقي · لكنه شرطي على اي حال · اجمل شيء هو صفارات رجال الشرطة التي تتحول من جرس انذار الى آلة موسيقية في خوسيه انطونيو، كنت ارى الرايات واستمع الى النشيد الاممي يخرج من الحناجر والاكف · كأن مدريد عادت مدينة · وكأن هذا القبر الذي اقامه فرنكو لم يتسع لغير جثته ·

اسبانيا تعني الذكريات · من ابن عباد الى الموشحات · ومن قرطبة الى الحمراء · العربي الذي يدخل اسبانيا يواجه بأن هذه البلاد هي اجمل مرآة يراها في حياته · كأنك في فاس او الدار البيضاء او دمشق · لكن اللهجة تختلف · بلاد وانهار وغابات من المرايا · لا بد من التمتمة باسم طارق بن زياد ، او الكلام عن عبد الرحمن الداخل · لكن اسبانيا ، الاندلس ، شيء اخر واكثر عمقا · انها عروبة-من نوع اخر · لا اتكلم عن الفتح ولا عن الذكريات · اتكلم عن المرايا · نفس الرائحة الدموية · رائحة لوركا وتل الزعتر · نفس الاصوات والمآذن · والذين قتلوهم يقتلوننا ·

في شارع خوسيه انطونيو ، كنت ابحث مع كارمن رويث المستعربة الشابة ـ ٢٩ سنة · عن الوجه العربي الذي لم يغب عن اسبانيا · ففوجئت بكلام جديد · كلام لا يشبه كلام المستشرقين أو الرهبان : « احب ان اعرف وافهم الواقع العربي · فأنا اشعر أن العلاقة بين الشعوب ليست شيئا من الماضي · فنحن في اسبانيا ننتمي فعليا الى العالم الثالث تاريخ اسبانيا المعاصرة ، وتاريخ اميركا الجنوبية هو تاريخ استعمار ثقافي وازمات اقتصادية وسياسية · ومحاولاتنا لحل مشاكلنا ، تتشابه الى حد كبير مع محاولات حل مشكلات العالم العربي والاسلامي · عندما اتابع المفكرين الاميركيين الجنوبيين ، يتأكد لدي ان المشاكل تشبه مشكلات القومية العربية والوحدة · يحاول الجيل الجديد من